الإتباع الحركي في ضوء علم اللغة الحديث

Assimilation' in Light of Modern Linguistics

د/ زكريا عطيفي حماده عطيفي

أستاذ أصول اللغة المساعد

جامعة الجوف – كلية العلوم والآداب بالقريات

المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني: zootify@ju.edu.sa

تاريخ الاستلام: 2022/02/23 - تاريخ القبول: 2022/04/08 - تاريخ النشر: 2022/06/01

الملخص: يعد الإتباع الحركي خاصية من خصائص لغتنا العربية، ومظهرا من مظاهر التطور الصوتي فيها، يحدث بين الأصوات الصائتة عند تجاورها، ويرجع السر في وجود الإتباع الحركي في اللغة العربية إلى اعتماد اللغة في نشأتها على المشافهة والنطق، لا على التدوين والكتابة، وهذا دعا الناطقين بها إلى التقريب بين الأصوات.

والهدف من البحث هو دراسة ظاهرة الإتباع عند العرب في ضوء علم اللسانيات المعاصر.

وقد توصل البحث إلى عدة نتائج، منها: الإتباع الحركي ظاهرة من ظواهر اللغة العربية تهدف إلى الاقتصاد في الجهد العضلي، والخفة والسرعة في النطق وتحقيق الانسجام بين الأصوات المتجاورة، عرفها العرب، ولا تزال بقاياها موجودة، وأيضا أن الغرض من الإتباع الحركي هو: التخفيف، والاقتصاد في الجهد العضلي؛ لذا مالت إليه القبائل البدوية، كتميم وأسد وقيس، واشتهرت به؛ لأنه يناسب بيئتهم الجغرافية، وطبيعتهم اللغوية.

الكلمات المفتاحية : الانسجام الصوتي، التخفيف، الجهد العضلي.

المؤلف المرسل: د/ زكريا عطيفي حماده عطيفي، **الإيميل**: zootify@ju.edu.sa

Assimilation' in Light of Modern Linguistics

Abstract

Arabic language, and a manifestation of the phonetic development in it, which occurs between the consonant sounds when they are adjacent. To bring the sounds together.

The aim of the research is to study the phenomenon of following among Arabs in the light of modern linguistics, and in the light of contemporary linguistics.

The research has reached several results, including: kinetic subordination is a phenomenon of the Arabic language that aims to economize on muscular effort, lightness and speed in pronunciation and achieve harmony between adjacent sounds, known to the Arabs, and its remnants are still present, and also that the purpose of kinetic following is: , economy in muscular effort; Therefore, the Bedouin tribes, such as Tamim, Asad and Qais, tended to him and became famous for him. Because it fits their geographical environment, and their linguistic nature.

Keywords: Phonemic Assimilation'; mitigation; muscular effort

المقدمة:

الحمد لله ذي الفضل والإحسان، شرّف العربية بالقرآن، وامتن على عباده فعلّمهم البيان، والصلاة والسلام على النبي العدنان، أفصح الخلق لسانا، وعلى آله وصحبه أكرم بهم أنصارا وأعوانا.

ثم أما بعد،

فمن المعروف أن الصوامت تتجاور، ويؤثر بعضها في بعض، ويكون ذلك في صور متعددة، كالإدغام، والإبدال، والمخالفة، والمماثلة،... وغيرها، والغرض من ذلك –كلّه أو جلّه– التخفيف وتقليل الجهد العضلي.

وكما تتجاور الصوامت تتجاور الصوائت، وكما يحدث التأثير بين الصوامت، يحدث كذلك بين الصوائت، فتميل بعض اللهجات العربية في نطقها إلى التماثل والانسجام بين الحركات، وهذا يعرف بالإتباع الحركي.

والغرض من الإتباع الحركي هو التخفيف وتقليل الجهد العضلي، وتحقيق الانسجام بين الأصوات؛ حيث يكون عمل اللسان من وجه واحد.

والإتباع الحركي يكون بتأثير حركة سابقة في حركة تالية – أي إتباع المتأخر للمتقدم، وهو الأقيس–أو العكس أي: إتباع حركة الحرف المتقدم لحركة الحرف المتأخر(إتباع رجعي أو مقلوب)؛ لأجل المماثلة، وتخفيف الجهد العضلي، وتحقيق الانسجام بين الأصوات.

وللإتباع الحركي مترادفات كثيرة، منها: المماثلة، والمشاكلة، والمضارعة، والمجانسة، والتقريب.

والهدف من الإتباع الحركي هو التقريب بين الأصوات المتجاورة، إضافة إلى السرعة في النطق، والاقتصاد في الجهد العضلي، ومحاولة الانسجام بين الأصوات.

أما عن منهجي، فهو المنهج الوصفي التحليلي، حيث قمت باختيار نماذج من الإتباع الحركي، ثم قمت بدراسة تلك النماذج، وتفسيرها صوتيا في ضوء علم اللغة الحديث، مبينا مدى وجودها في القراءات القرآنية، مع نسبة اللغة إلى أصحابها، ثم بينت مدى وجود ذلك في اللهجات الحديثة.

مشكلة البحث:

لا شك أن بعض القبائل العربية كانت تميل في كلامها إلى التغيير في الأصوات بغرض المماثلة وتقليل الجهد العضلي، فهناك تغييرات كثيرة تطرأ على الأصوات كالإبدال والإمالة، والفك والإدغام، والإتباع الحركي، وقد اختلفت القبائل العربية في ذلك، تبعا لطبيعة وجغرافية كل بيئة منها.

هدف البحث: دراسة الإتباع الحركي عند العرب في ضوء علم اللسانيات المعاصر، وبيان القبائل التي مالت إلى الإتباع، مع إلقاء الضوء على دور البيئة الجغرافية في ذلك، ومدى وجود الظاهرة في العصر الحالي.

أما المنهج الذي سرت عليه فهو المنهج الوصفي التحليلي؛ فقد اخترت بعض النماذج الممثلة لهذه الظاهرة من كتب اللغة والنحو والقراءات القرآنية، وقمت بتطبيق المنهج الوصفي عليها، مبينا مدى اتفاقها وعلم اللسانيات الحديث.

التمهيد

الإتباع الحركي في ضوء علم اللغة الحديث

تميل بعض القبائل إلى تخفيف الجهد العضلي بطرق شتى، من ذلك أنها تبدل صائتا قصيرا إلى آخر، وقد تبدل السكون إلى حركة؛ لتحقق التماثل والانسجام بين الأصوات، وهذا يعرف بالإتباع الحركي.

وقد عرَف علماء العربية القدامى هذه الظاهرة، ولكن اختلفت مسمياتهم لها، فالإمام سيبويه سماها الإتباع تارة، والمضارعة تارة أخري[1] أما ابن جني فسماها تارة الإدغام، وأخرى حركات الإتباع.[2]

أما علماء اللغة المحدثون، فأطلقوا عليها كثيرا من المصطلحات منها: المماثلة [3] والمناسبة [4] والتوافق الحركي [5] والمماثلة في الحركات أو الانسجام. [6]

ونرى أنه يمكن الجمع بين هذه المصطلحات كلها؛ لأن الحركة إذا تبعت حركة أخري فقد حدثت المماثلة، وتم الانسجام والتوافق الحركي؛ ومن ثم فهذه التسميات تتعاضد ولا تتعارض.

الإتباع لغة: التُّلُوُّ وَالْقَفْوُ.[7]

أما الإتباع في الاصطلاح فقد عُرّف بتعريفات متعددة منها:

هو تأثر الصوائت القصيرة بعضها ببعض، وذلك عندما يتجاور أو يتقارب صائتان قصيران في كلمة أو كلمتين فيتأثر أحدهما بالآخر، وينقلب إلى جنسه؛ طلبا للخفة والانسجام بين الأصوات. [8]

2- وعرّفه بعضهم بأنه: إبدال حركة إلى أخرى تحاشيا لانتقال اللسان من وضع حركة إلى وضع حركة أخرى مختلف.[9]

والعلة في ميل اللغة العربية إلى الإتباع هو تيسير عملية النطق، وليعمل اللسان من وجه واحد، لا سيما أن اللغة نشأت شفوية لم تقيد بقيود الكتابة، واكتفي فيها آنذاك بالسماع والنطق؛ لذا اعتنوا بالانسجام والتقريب بين الأصوات. [10]

أقسام الإتباع الحركي:

قسم العلماء الإتباع الحركي قسمين:

1. الإتباع التقدمي: وهو الذي يتأثر فيه الثاني بالأول.

2. الإتباع الرجعي: وهو الذي يتأثر فيه الأول بالثاني.

والإتباع التقدمي هو الأقيس؛ لأنه جار مجرى السبب والمسبب، ولا شك أن السبب أسبق رتبة من المسبب، أما الإتباع الرجعي فهو الذي تتبع فيه حركةُ الحرف الأول حركةَ الحرف الذي بعده، ويسمي (إتباع مقلوب)[11]

وسوف أتناول- بمشيئة الله- هذين القسمين بالدراسة، سواء أكان الإتباع في كلمة أم في كلمتين.

المبحث الأول: الإتباع التقدمي

أولا: الإتباع بالفتح:

1- إتباع السكون للفتحة (فَعْل وفَعَل):

أجاز الكوفيون فتح وتسكين كل ما كان ثانيه حرفا من حروف الحلق، نحو: بعْث، وبعَث، وبَخْل، وبَخَل؛ لكن بعضهم عد هذا خطأ، وذكر أن مرجعه للغة، فلا نقول وَعَد في وعْد ، لا فرق بين حروف الحلق وغيرها في هذا [12]، كالطَّرْدُ والطَّرَدُ، والغَبْن والغَبَنُ، والدَّرْك والدَّرَكُ .[13]

فالكوفيون ذهبوا إلى أن هذا خاص بحروف الحلق وهو مقيس عندهم، لكن البصريين لا يفرقون في هذا بين حروف الحلق وغيرها، وردوا ما جاء من ذلك إلى اختلاف اللغات. [14]

وأرى أنه لا مانع مطلقا من اجتماع اختلاف اللغات والإتباع معا، فقبيلة بعينها آثرت الفتح على الإسكان، ونطقت به، وبذلك تكون عدَلت عن التخفيف إلى ما هو دونه في الخفة؛ ليعمل اللسان من جهة واحدة، والأصل هو السكون أما الفتح فهو عدول عنه لأجل الإتباع، وقد ذكر السيوطي أنه لم يخفف المفتوح إلا في حرف واحد، وإنما يكون التخفيف في المضموم والمكسور. [15]

التفسير الصوتي:

لا شك أن العدول عن أخف الأبنية إلى ما دونه في الخفة، لا يحدث اعتباطا؛ بل لا بد من علة قوية تسوغ هذا العدول، والإتباع الحركي يفسر هذا العدول؛ حيث أثّرت الفتحة السابقة في ضبط الحرف اللاحق لها، فضُبِط بالفتحة بعد أن كان ساكنا؛ ليعمل اللسان من وجه واحد، علما بأن هذا التغيير ليس مقصورا على حروف الحلق؛ لكنه يكثر فيها عن غيرها، كما أن هذا التغيير يحدث في بعض الألفاظ دون بعض، وعند بعض القبائل العربية دون غيرها.

ومعروف أن حرف الحلق بعد صدوره من مخرجه يحتاج إلى اتساع مجراه في الفم؛ لذلك ناسبه من أصوات اللين أكثرها اتساعا وهو الفتح[16]، بل ذكر بعض العلماء أن تحريك الصوت الحلقي أخف من تسكينه [17].

الظاهرة في القراءات القرآنية:

قرأ بعض القراء قوله تعالى" فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ " في "الدَّرَك" بفتح الراء[18]وقوله سبحانه "إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ"، قُرِيء" قرَح" بفتح الراء في الكلمتين.[19]

ومما تجدر الإشارة إليه أن عين الكلمة في الآيات السابقات لم تكن حرف حلق، وهذا يؤكد أن هذا الإتباع ليس خاصا بحروف الحلق؛ بل هو عام فيها وفى غيرها، وأن مرجعه السماع.

كما ورد هذا الإتباع فيما كانت عينه حلقية، كقوله تعالى "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ"، حيث قُرِئ بفتح العين في كلمة البعث.[20]

نسبة الظاهرة:

عزيت الظاهرة إلى عقيل، وبكر بن وائل ، وعزيت أيضا لتميم.[21]

2- إتباع العين للفاء في المجموع بالألف والتاء (فَعْلات وفَعَلات):

يري علماء التصريف أن الاسم الذي بزنة (فَعْلة) معتل العين فإنه يجمع جمع مؤنث سالم على (فَعْلات)، فيقال في جَوْزة وبَيْضة جَوْزات وبَيْضات، هذا ما عليه جمهور العرب فلا يتبعون حركة العين لحركة الفاء، أمنا للبس؛ لأن العين إذا فتحت قالوا: جَازات وباضات، فيلتبس (فَعْلة) ساكنة العين بـ (فَعَلَة) مفتوحة العين نحو: دَارة ودارات وقامة وقامات.

هذا رأي الجمهور، لكن وجدت بعض القبائل العربية كهذيل أتبعت حركة العين لحركة الفاء، وأبقت الكلمة على حالها دون قلب، فيقولون جَوَزات وبَيَضات. [22]

ومن ذلك قول الشاعر:

أبو بَيَضات رائح متأوب ... رفيق بمسح المنكبين سبوح [23]

التفسير الصوتي:

أجرت هذيل الاسم الثلاثي معتل العين مجرى صحيح العين، فأجازت فيه الإتباع ولا لبس عندها؛ لأنها لم تعل الكلمة فلم تقل باضات وجازات وعارات، ولا تفسير لهذا الإتباع سوى التسهيل الذي جاء من تماثل الحرفين في الحركة.

وإذا لم نجد تعليلا صوتيا لهذا الأمر، فإن بيئة هذيل الجغرافية نفسها تفسر لنا ما صنعته هذيل، فهذيل تسكن إقليما جغرافيا شاذا، فمن جبال فارعة الطول إلى وديان منبسطة فسيحة، كما تجتمع فيها المراعي وتكثر، كذلك توجد فيها صحراء قاحلة جافة، فشذت لغة هذيل كما شذت بيئتها الجغرافية، وكما يقولون الشذوذ يجلب الشذوذ، حتى إن هذيلا تفردت بألفاظ وصيغ لا تعرفها بقية العرب.[24]

الظاهرة في القراءات القرآنية:

ورد هذا الإتباع في القراءات القرآنية، فقوله تعالى: (ثلاث عَوْرات لكم) قُرِئ بفتح الواو. [25]

نسبة الظاهرة:

عزيت هذه اللغة إلى هذيل[26] ، وعزيت لتميم [27]، وعزاها بعضهم لهذيل وتميم معا. [28]

وفى العصر الحديث رجح الدكتور/ الجندي نسبتها لهذيل، ونفى أن تنسب لتميم، واستشهد على ذلك بأدلة منها: ورود هذه اللهجة في شعر الهذليين، كما أن الأعمش الذي قرأ بتلك اللهجة أسدي وليس تميميا، بل إنه تتلمذ بالكوفة على ابن مسعود، كما أن دأب تميم أن تحذف الحركات القصيرة المنبورة فهي تقول:

سَجْدات بسكون العين؛ بينما تفتح الحجاز العين، إذن هذه الظاهرة لا تتسم مع ما عرف عن تميم من حذفها الحركات القصيرة؛ ولذلك فهي أجدر بهذيل المشتهرة بالانحرافات اللهجية، والصيغ الغريبة. [29]

ثانيا: الإتباع بالضم:

1- إتباع السكون للضم (العين للفاء: فُعْل وفُعُل):

من ذلك: العُسْر والعُسُر، قال ابن الأعرابي

إنّي يُذَكرُنيه كلُّ نائِبَةٍ *** والخير والشر والإيسار والعُسُر.

يجوز أن يكون العُسُر لغة في العُسْر، كقولهم: القُفُل في القُفْل، والقُبُل في القُبْل، ويجوز أيضا أن يكون احتاج فَثقّل، وحَسَّن له ذلك إتباع الضم الضم . [30]

ومن ذلك أيضاً : الرُّعْب والرُّعُب، ورُحْم ورُحُم، والنُكْر والنُكُر.[31]

اختلف العلماء في الكلمات السابقة وفى غيرها مما جاء على (فُعْل) بسكون العين وضمها، أي اللهجتين هي الأصل، فذهب الفريق الأول إلى أصالة السكون، وأن الضم هو العارض الذي جاء للإتباع، فالفيومي يذكر أن بني أسد يضمون العين إتباعا للفاء في كل اسم ثلاثي على وزن (فُعْل)، نحو: عُسْر ويُسْر، يقولون: عُسُر ويُسُر [32]، ويرى الفريق الثاني أن الأصل هو التحريك، والإسكان تخفيف عنه. [33]

أما الفريق الثالث فلم يرجح لغة على أخرى، ومن هؤلاء ابن خالويه، حيث ذكر القراءتين في (الرعب) وذكر أن حجة من أسكن: أن الأصل الضم فثُقل عليه الجمع بين ضمتين متواليتين فأسكن، وحجة من ضم أن الأصل عنده الإسكان فأتبع الضم الضم؛ ليعمل اللسان من وجه واحد، ويكون اللفظ في موضع واحد، كقراءة " تبارك الذي بيده المُلْك " بضمتين، وأيا كان الأصل فهما لغتان.[34]

ولكن الراجح أن الأصل هو السكون؛ لأنه الأكثر ورودا من هاتين الصيغتين، والأشهر استعمالا، كما أنه أخف من الحركات؛ لذا عدوه أصلا فيما جاء في عينه الحركة والسكون. [35]

التفسير الصوتي:

يتفق هذا الإتباع مع القوانين الصوتية، فالذي حدث هو اجتماع الضمة والسكون، وتقدمت الضمة على السكون، ومن ثم ساعدت قوة الضمة السابقة وضعف السكون اللاحق على هذا الإتباع، والسبب في العدول عن الأكثر الأخف إلى ما هو دونه في ذلك؛ ليجري اللسان على وجه واحد.

وهذا الإتباع من الإتباع التقدمي، فقد أثّر الأول- وهو الضم لكونه قيمة إيجابية- في الثاني- وهو السكون لكونه قيمة خلافية سالبة- فتحول السكون إلى ضمة مماثلة ، تحقيقا لمبدأ الانسجام الصوتي.

وكانت الضمة الأقوى بحكم تكوينها، وتقدم موقعها في الصيغة، يضاف إلى ذلك العامل النفسي العضوي الذي هو الجمود على الحركة المتقدمة والالتزام بها. [36]

نسبة الظاهرة:

عزا الفيومي هذا الإتباع لبني أسد، وجعله مضطردا في كل اسم ثلاثي على (فُعْل) بضم الفاء وسكون العين[37] ، ولما كان أهل البادية أهل حل وترحال لا يستقرون في مكان، بل يتنقلون طلبا للمرعى، اتفق هذا النطق مع تلك الطبيعة فآثروا السرعة في النطق والأداء.

الظاهرة في القراءات القرآنية:

وردت قراءات قرآنية كثيرة أتبعت فيها العينُ الساكنة الفاءَ المضمومة، فتحولت (فُعْل) إلى (فُعُل)، ومن ذلك قول الحق سبحانه: "وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا" [38]، قرأ الجمهور بإسكان العين وقرأ بعض القراء بضم العين إتباعا لضمة الفاء. [39]

وكذا قوله سبحانه" وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا " [40]، قرأ الجمهور بسكون العين، وقُرِيء بضمها [41]، وقوله تعالى: " لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا " [42]، وقوله سبحانه:" قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا " [43]، قرئت نُكُرا وعُذُرا بضم العين فيهما[44]، وقوله سبحانه: "فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا" [45]، قرئت رُشُدا بضم العين إتباعا لضمة الفاء [46]، وكذا قوله تعالي: "وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا " [47]، قرئت خُبُرا بالإتباع [48]، وقوله سبحانه: " وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا "، قرئت عُرُفا بالإتباع. [49]

وهذا كثير حتى قال يونس: ما سُمِع في شيء (فُعْل) إلا سمع فيه (فُعُل) [50]، وهذه اللغة – يعني لغة الإتباع – لغة جيدة. [51]

ثالثا : الإتباع بالكسر:

ورد عن العرب الإتباع بالكسر في كلمة واحدة – وسيأتي الحديث عنه في المبحث الثاني: الإتباع الرجعي – وورد أيضا الإتباع بالكسر في كلمتين، من ذلك قول الشاعر:

اضرب الساقين إمّك هابل. [52]

هذا المثال ذكره ابن جني في: "باب في هجوم الحركات على الحركات"، وذكر أن أصله : أُمك هابل بضم الهمزة ؛ لكنها كُسرت لانكسار ما قبلها على حدّ قراءة من قرأ : (فلأَمِّه الثلث) فصار: إمُّكَ هابل، ثم أتبع الكسر الكسر، فهجمت كسرة الإتباع على ضمة الإعراب فابتَّزتها موضعها وذكر أنه شاذٌّ لا يقاس عليه، فلا يقال: قِدرِك واسعة ولا عِدْلِك ثقيل ولا بنتِك عاقلة. [53]

الظاهرة في القراءات القرآنية:

وردت قراءات قرآنية على هذه اللغة، فكسر بعض القراء الهمزة في (أم) إتباعا للحركة التي قبلها ، وذلك في الآيات الآتية: "فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ "[54]، وقوله تعالى: "أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ"[55]، وقوله عز شأنه: "وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ "[56]، وقوله تعالى: "وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا" [57]

التفسير الصوتي:

أصل الهمزة في كلمة (أم) الضم؛ ولكنها كسرت في القراءات السابقة، وكذلك في البيت الشعري، لمناسبة الكسرة أو الياء قبلها [58]؛ ليعمل اللسان من وجه واحد، فخرج هنا من الانتقال من كسر لضم ، لأن الضم أصعب الحركات، كما أنه لا يوجد في كلام العرب ضمة بعد كسرة إلا في حرفين ، هما:"زِئْبُر" لغة في الزئبر، "وإِصْبُع" [59]. واللغة دائما تميل إلى السهولة وتقليل الجهد العضلي، وهذا فيه من التخفيف وتقليل الجهد العضلي ما لا يخفى.

نسبة الظاهرة:

هذه الظاهرة من خصائص اللغات البدوية التي تتوخى السرعة والسهولة في النطق، فتلجأ إلى هذا النوع من الإتباع ؛ لذا عزاها العلماء إلى هوازن وهذيل [60].

الظاهرة في اللهجات المعاصرة:

لا تزال هذه الظاهرة موجودة في العربية المعاصرة، خاصة في العاميات، فنسمعها في الجنوب من صعيد مصر، بل إنهم عمموا الحكم فكسروا الهمزة من (أم) مطلقا سواء أسبقت بكسر أو ياء، أم لم تسبق، كذلك نسمعها على ألسنة أهل الشام وسوريا ولبنان.

المبحث الثاني: الإتباع الرجعي

أولا: الإتباع بالكسر:

1- إتباع الفتحة للكسرة: كسر فاء (فَعِل وفَعيل) حلقي العين:

ذكر سيبويه أن ما كان على وزن (فَعِل)حلقي العين ففيه أربع لغات:(فَعِل وفِعِل وفَعْل وفِعْل)، وقد اختارت تميم كسر الفاء.[61]

ومن أمثلة ذلك: لِئيم ونِحِيف ورِغِيف وبِخِيل وبَعِل ونِعِل ولَعِب ورَحِم، وكذلك إذا كان صفة أو فعلا أو اسما، نحو: رجلُ، لِعِب ومِحِك؛ والعلة في أن هذه الحروف كسرت ولم تفتح أنه ليس في الكلام فَعَيْل بفتح

الفاء والعين، وحتى لا يلتبس فَعِل بفَعَل فيخرج من هذه الحروف فَعِل فلزمها الكسر، وكان أقرب الأشياء إلى الفتح وكانت من الحروف التي تقع الفتحة قبلها فَكَسَرت ما قبلها حيث لزمها الكسر، فأرادوا أن يكون عمل اللسان من وجه واحد. (62)

ذكر سيبويه أن كسر فاء فَعِل وفَعِيل إذا كان حلقي العين أمرا مطردا، وما ذكره سيبويه، ذكره أيضا جمع من العلماء. (63)

هذا ما فعله أهل البادية، لكنَ أهل الْحجاز لَا يغيّرون، فلَا يَقُولُونَ شِهيد ولا شِهد بكسر الفاء، وإنما يفتحون (64)، ويعد هذا النوع من الإتباع الرجعي؛ لأن الصوت الأول قد تأثر بالثاني وهو خلاف الأصل، فأقيس الإتباع أن يكون الثاني تابعا للأول. (65)

التفسير الصوتي:

لا شك أن السرعة في النطق من خصائص أهل البادية، هذه السرعة تتطلب تتابع الحركات؛ ليعمل اللسان من جهة واحدة، والعلة في أن هذه الحروف كسرت ولم تفتح أنه ليس في الكلام (فَعَيْل) بفتح الفاء والعين، وحتى لا يلتبس (فَعِل) بـ (فَعَل) فيخرج من هذه الحروف (فَعِل) فلزمها الكسر، وكان أقرب الأشياء إلى الفتح وكانت من الحروف التي تقع الفتحة قبلها فَكَسَرت ما قبلها حيث لزمها الكسر، فأرادوا أن يكون عمل اللسان من وجه واحد. (66)

وهذا معناه أن البدو يفضلون توافق الحركات؛ بل لا يحسنون غيره، فإما أن يقولوا (فِعِيل) وإما أن يقولوا (فَعَيْل)، ولقد آثروا الأولى؛ لعدم وجود الثانية في اللغة الفصحي كما آثروا: (فِعِل) دون (فَعَل)؛ لأنهم لا ينطقون: (فَعِل)، لما فيه من المخالفة بين الحركات، وهذا أمر لم تتعوده ألسنتهم.(67)

ومما تجدر الإشارة إليه أن علة القرابة بين الفتحة والكسرة غامضة بعض الشيء؛ لأن علماء اللغة المعاصرين يقررون أن الضمة والكسرة تتقاربان جدا، وهذا التقارب بين الضمة والكسرة غير متحقق بين الفتحة والكسرة بنفس النسبة، وإنما كل ما في الأمر أن الكسرة أسهل في أدائها من الضمة؛ نظرا لانفراج الشفتين في كلتا الفتحة والكسرة واستدارتهما في الضمة، ولذا كانت الحركة المختارة بديلا عن الفتحة هي الكسرة لدى البدو، لسهولة أدائها أكثر من الضمة، وهذا هو مدى القرابة بين البدل والمبدل منه في هذا الباب.(68)

نسبة الظاهرة:

اختلف العلماء في نسبة هذه الظاهرة، فعزيت لبني تميم وسفلي مضر [69]، كما عزيت لقيس وربيعة وبني تميم [70]، وعزيت أيضا لهذيل. [71]

ولا مانع من نسبة هذه الظاهرة إلى هذه القبائل كلها؛ لأن قبائل البادية تفضل الانسجام الصوتي والسرعة في النطق، فهذا لون من التخفيف، إضافة إلى تجاور هذه القبائل، والجوار يؤدي بدوره إلى التأثير والتأثر، ومن ثم انتشرت هذه الظاهرة في أماكن متعددة.[72]

ويرى المستشرق رابين أن لهجة هذيل لم يصبها شيء من تناسق الأصوات [73]؛ لكن هذا الكلام مردود، ومما يؤكد رفضنا هذا عزو الإمام سيبويه هذه الظاهرة لهذيل[74] ؛ بل إن في كلام رابين نفسه ردا عليه، فإن كانت لهجة هذيل لم يصبها شيء من ذلك التناسق بين الأصوات، فكيف يذكر رابين: أن وجود الكسر – هنا– يدل على أن لهجة هذيل لم يصبها شيء من الميل الشرقي إلى تناسق الألفاظ.[75]

فما معنى وجود الكسر؟ وهل كسر فاء الكلمة إتباعا لكسر العين يراد منه شيء سوى هذا التناسق والائتلاف بين الأصوات!!

فهذيل وإن كانت حجازية متأثرة بأهل المدن من الحجازيين خاصة قريش، فإنها – مع هذا – قبيلة بدوية تجاور هوازن وغيرها، وهذا بدوره يجعلها تتأثر هي أو تتأثر بعض بطونها القريبة من هؤلاء بهذا التناسق الصوتي في الألفاظ. [76]

الظاهرة في القراءات القرآنية:

قال تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ"[77]، قرئت بِهِيمة بكسر الباء[78]، وقوله سبحانه: " إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ " [79]، قرئت بكسر النون والعين وقرئت بكسر العَيْن وفتح النون، والإتباع لغة هذيل. [80]

الظاهرة في اللهجات المعاصرة:

لا تزال هذه اللغة موجودة حتى الآن؛ لكنها غير مقيدة بحروف الحلق، فنحن نسمع: رِغِيف وبِهِيم وبِعِيد ورِخِم ورِزِل وتِعِب ولِعِب وضِحِك، وليس ذلك مطردا، فإنه قد يكون (فعيلا) حلقي العين، ومع ذلك لا تكسر فاؤه كلهجة بني تميم، بل يسير مسار اللغة المشتركة، فيقال: رَحيم ونَحيف، وما لم يكن حلقي العين في ذلك أولى بفتح فائه، فيقال: كَريم، هَزيل، عَنِيد، طَوِيل.[81]

كما أننا نسمع هذه اللغة في الجنوب من صعيد مصر، فيقولون: بِهِيم ورِغِيف وبِعِيد وقِصِير وكِرِيم.

2. إتباع الضمة للكسرة:

(المُغيرة، المُنخِران، مُنتِن):

ورد عن العرب الإتباع بين الضمة والكسرة، فأبدلت الضمة المتقدمة كسرة، نحو: (المِنْخِران) في (المَنْخِران) [82]، ونحو: المُغيرة والمِغيرة، ذكر سيبويه أن المِغِيرة إتباع ، كقولهم: شِعِير في شَعِير وليست بلغة [83] ، وريح مُنْتِنة ومِنْتنة. [84]

كما حدت الإتباع بين الفتحة والكسرة، حدث كذلك بين الضمة والكسرة، فأبدلت الضمة المتقدمة كسرةً؛ لأجل الكسرة التي بعدها، كقولهم: (المِنْخِران) في (المُنخِران) و(المِغيرة)في (المُغيرة)، والإمام سيبويه يرى أن المِغيرة مضارعة كقولهم: شِعِير في شَعِير وليست بلغة ، وريحُ، مُنْتِنة ومِنْتنة.

وأرى أنه لا مانع مطلقا من أن يكون إتباعا ولغة في آنٍ واحدٍ، فماذا نسمي ما صنعته تميم؟ نسميه إتباعا، كما نسمي العنعنة إبدالا، ونسمي النطق بحرفين حرفا واحدا إدغاما، فتلك لغات، ومع ذلك عند تصنيفها وفق الدرس اللغوي الحديث، نقول: إبدال، إدغام، همز، تسهيل ..... وهكذا.

والذي حدث في هذين المثالين هو إبدال الضمة كسرة لأجل الكسرة التي بعدها، وهذا إتباع رجعي أو مدبر، وهو خلاف الأصل؛ لتأثر الأول بالثاني.

التفسير الصوتي:

هذا الإتباع يلائم أهل البادية فهم يميلون إلى السرعة في النطق، والانسجام والتقريب بين الأصوات، كما أن عدم الإتباع يناسب أهل الحجاز فهم يفضلون التأني في النطق ويعطون كل صوت حقه من الأداء[85] ، ولا شك أن قانون الانسجام الصوتي يقوم على الاقتصاد في الجهد العضلي، وهذا نلسمه واضحا في البادية، كما نسمعه الآن في اللهجات الحديثة بين الفلاحين والعمال من غير المثقفين، فهؤلاء يطلقون أنفسهم على سجيتها في النطق دون تحكم كثير في اللسان، ولهذا ظهر الكسر في القبائل البدوية؛ لأن ظروفها دفعت إلى وجود شيء من التناسق الصوتي في بعض ألفاظها. [86]

نسبة الظاهرة:

ذكرها كثير من العلماء دون عزو لقبيلة من القبائل [87]، وعزاها ابن سيده لتميم .[88]

ب- (الْحَمْدُ لِلَّهِ):

كما ورد الإتباع الرجعي في كلمة واحدة، جاء أيضا في كلمتين، من ذلك قول بعض العرب: (الحمدِ لِلهِ) بكسر الدال إتباعا لكسرة اللام بعدها [89]، وعلى هذه اللغة وردت قراءة "الحمدِ لِلهِ" بإتباع الدال المضمومة للكسرة التي بعدها.[90]

وهذا الإتباع من الإتباع الرجعي، لأن الحرف الأخير من الكلمة الأولى (الدال) تبع الحرف الأول من الكلمة الثانية (اللام)، فالذي حدث هنا أنهم كسروا الدال من "الحمد" إتباعا لكسرة اللام في "لله"

والعلة في هذا الإتباع أنهم جعلوه بمنزلة الأسماء التي ليست بمتمكنة، وذلك أن الأسماء التي ليست بمتمكنة تحرك أواخرها حركة واحدة لا تزول علتها. [91]

وعلل القراء لهذا الإتباع بكثرة هذه الكلمة في كلامهم؛ لذا ثقل عليهم أن يجتمع في كلامهم في اسم واحد – تجوزا لكثرة الكلمة عندهم– ضمة بعدها كسرة، ووجدوا أن الكسرتين قد تجتمعان في الاسم الواحد مثل (إبِل) فكسروا ليكون على المثال من كلامهم. [92]

ومن العلماء من قدح في هذه القراءة، فذكر الزجاجي أن هذه لغة من لا يلتفت إليه ولا يتشاغل بالرواية عنه [93]، بل قال السيوطي عن هذه القراءة: إنه لا خير فيها [94]، وهى غريبة عند أبي حيان؛ لأنهم أتبعوا حركة معرب لحركة غير إعراب. [95]

التفسير الصوتي:

لما كثرت هذه الكلمة –الحمد لله– في كلامهم واستعمالاتهم، ثقل عليهم اجتماع ضمة وبعدها كسرة، فكسروا ليكون على المثال في كلامهم [96]، فيعمل اللسان عملا واحدا؛ وبذلك تحدث الخفة ويتحقق الانسجام.

نسبة الظاهرة:

لم يتفق العلماء في عزو الإتباع بالكسر في " الحمد لله " لقبيلة بعينها، فعزيت لبني تميم [97]، وعزيت لغطفان [98]، وهذا أمر طبعي فهو من قبيل التأثير والتأثر؛ لأن غطفان جاورت قبيلة تميم [99]، وعزاها بعضهم للبدو عامة. [100]

ثانيا: الإتباع بالضم:

إتباع الفتحة للضمة:

سمع عن العرب إتباع الفتحة المتقدمة للضمة المتأخرة، من ذلك :(يُعْفُورُ)،وهذا من قبيل الإتباع؛ وذلك لأنه ليس في الكلام (يُفْعول)[101]، ومثل يعفور، يَسرُوع قالوا فيها: يُسرُوع، ويَمْخُور قالوا فيها يُمْخُور. [102]

في الأمثلة السابقة تبعت الفتحةُ المتقدمة الضمةَ المتأخرة – إتباع رجعي– ولا شك أن أصل الياء في (يعفور، ويسروع، ويمخور) الفتح؛ لكنها ضُمّت إتباعا لضمة العين، وهذا إتباع رجعي حيث تأثر الأول بالثالث، وقد ذكر سيبويه أن العرب قالوا في اليَسْرُوع : (يُسْرُوع) فضموا الياء لضمة الراء، كما قالوا

(أُستضُعِف) لضمة التاء، ومن ذلك قول ناس كثير في يَعْفُر: (يُعْفُر). ويقوي هذا أنه ليس في الكلام يُفْعُل ولا يُفْعُول. (103)

التفسير الصوتي:

لا شك أن الذي ساعدهم على هذا الإتباع، هو سكون الحرف الثاني؛ لأن الساكن حاجز غير حصين والذي حدث في هذا الإتباع يتناسب والقوانين الصوتية، حيث تبعت الفتحةُ الضعيفة الضمةَ القوية، وهذا هو الطبعي في الإتباع؛ لأن الشأن في الإتباع أن الأقوى يتبعه ما دونه في القوة، والخفيفُ يتبع الثقيلَ، ولا شك أن الضمة أقوى وأثقل من الفتحة.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تتنزل الخيرات والبركات، وبتوفيقه تتحقق المقاصد والغايات، والصلاة والسلام على من ختمت برسالته الرسالات، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعـــد

فيطيب لي في نهاية تلك الرحلة العلمية مع هذا البحث أن أشير إلى أن الإتباع الحركي خاصية من خصائص لغتنا العربية، ومظهر من مظاهر التطور الصوتي فيها، يحدث بين الأصوات الصائتة عند تجاورها، بغرض التخفيف وتقليل الجهد العضلي، ويكون الإتباع الحركي بتأثير حركة سابقة في حركة تالية، أو إتباع حركة الحرف المتقدم لحركة الحرف المتأخر، وكما يكون في كلمة يكون في كلمتين.

وقد توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

أولا: الإتباع الحركي ظاهرة من ظواهر اللغة العربية تهدف إلى الاقتصاد في الجهد العضلي، والخفة والسرعة في النطق وتحقيق الانسجام بين الأصوات المتجاورة، عرفها العرب، ولا تزال بقاياها موجودة.

ثانيا: للإتباع الحركي مترادفات كثيرة، منها: المماثلة، المشاكلة، المضارعة، المجانسة، المناسبة، التقريب.

ثالثا: الإتباع الحركي قسمان: تقدمي، وهو أن يتأثر فيه المتأخر بالمتقدم، وهو الأقيس والأكثر، ورجعي وهو العكس، وهو أن يتأثر فيه المتقدم بالمتأخر، وهو خلاف الأصل.

رابعا: الإتباع التقدمي أكثر في اللغة من الإتباع الرجعي، وقد جاء في الكلمة الواحدة وفي الكلمتين.

خامسا: الغرض من الإتباع الحركي هو: التخفيف، والاقتصاد في الجهد العضلي؛ لذا مالت إليه القبائل البدوية، كتميم وأسد وقيس، واشتهرت به؛ لأنه يناسب بيئتهم الجغرافية، وطبيعتهم اللغوية.

سادسا: مال أهل الحجاز إلى عدم الإتباع؛ لأنهم يفضلون التأني في النطق وإعطاء كل صوت حقه في الأداء، كما أن ذلك يتفق وطبيعتهم الحضرية ، وبيئتهم المستقرة، بخلاف أهل البادية.

سابعا: تضمنت الدراسة ردا على المستشرق رابين الذي يرى أن لهجة هذيل لم يصبها شيء من تناسق الأصوات، فهذا مردود بالأمثلة التي كسرت فيها فاء الكلمة إتباعا لكسرة العين عند هذيل.

ثامنا: ترجح الدراسة أن الأصل فيما جاء على وزن (فُعُل) ، (فُعْل) هو (فُعْل) بسكون العين.

تاسعا: يرى بعض العلماء في بعض الأمثلة أنها لغة ، وليست بإتباع؛ لكن لا مانع من أن تكون لغة وإتباع في آنٍ واحدٍ،، فالعلماء عندما درسوا اللغات أطلقوا على هذا اللون اسم الإتباع– كظاهرة لغوية– وعزوه للناطقين به، كما فعلوا مع بقية الظواهر اللغوية، كالفك والإدغام أو الهمز والتسهيل ومن ثم فلا مانع مطلقا أن يصير لغة وإتباعا معا.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الهوامش

(1) سيبويه، الكتاب: 109/4، 477/4

(2) ابن جني، الخصائص:143/2، 145، 333/2، 337

(3) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية د/ 179

(4) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها:273

(5) أحمد عفيفي، ظاهرة التخفيف في النحو العربي: 150

(6) أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث: 266/1

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة (ت ب ع) 1/ 362

(8) عبده الراجحي ، اللهجات العربية في القراءات القرآنية: 143

(9) الموافي الرفاعي، الحركات العربية : 177

(10) أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث: 1/ 267

(11)أحمد عفيفي، ظاهرة التخفيف في النحو العربي: 150

(12) النحاس، إعراب القرآن:3/ 87

(13) ابن السكيت، إصلاح المنطق: 97

(14) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 484

(15) السيوطي، المزهر: 2/ 86

(16) إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية : 170

(17) عبده الراجحي، اللهجات العربية في القراءات القرآنية: 113

(18) من الآية (145) سورة النساء، ابن خالويه، الحجة : 127

(19) من الآية (140) سورة آل عمران، النحاس، إعراب القرآن: 1/ 408

(20) من الآية (5) سورة الحج، النحاس، إعراب القرآن: 3/ 279
(21) ابن جني، المحتسب: 1/ 84، أبو حيان، البحر المحيط :3/ 635
(22) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/ 260
(23) ابن جني، المنصف: 343
(24) أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث : 2/ 541
(25) من الآية (58) سورة النور، ابن خالويه، مختصر في شواذ القرآن: 104
(26) ابن جني، الخصائص: 3/ 184، المبرد، المقتضب: 2/ 193، ابن منظور، لسان العرب : (ع ي ر): 4/ 3188
(27) ابن خالويه، مختصر في شواذ القرآن: 104
(28) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 36، 433، أبو حيان، الارتشاف: 2/ 591، 592
(29) أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث: 2/ 543، 544
(30) ابن سيده، المحكم: (ع س ر) 1/ 295.
(31) ابن سيده، المحكم: (ر ح م) 3/ 254 ، (ر ع ب) 2/ 95 ، (ن ك ر) 6/ 500
(32) الفيومي، المصباح المنير: 698.
(33) الشيرازي، الموضح :1/ 386.
(34) ابن خالويه، الحجة: 114 .
(35) أحمد طه سلطان، قراءة يحيي بن وثاب في ضوء علم التشكيل الصوتي: 23 .
(36) أحمد طه سلطان، قراءة يحيي بن وثاب في ضوء علم التشكيل الصوتي: 42، 43.
(37) الفيومي، المصباح المنير (الخاتمة): 698.
(38) من الآية (73) سورة الكهف.
(39) أبو حيان، البحر المحيط: 7 /207.
(40) من الآية (88) سورة الكهف
(41) أبو حيان،: البحر المحيط 7/ 223.
(42) من الآية (74) سورة الكهف.
(43) من الآية (76) سورة الكهف.
(44) العكبري، إعراب القراءات الشواذ: 2/ 28، 29.
(45) من الآية (6) سورة النساء.
(46) أبو حيان، البحر المحيط 3/ 519.
(47) الآية (68) سورة الكهف.
(48) أبو حيان، البحر المحيط 7/ 205.
(49) الآية (1) سورة المرسلات، أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 373
(50) ابن جني، المحتسب: 1/ 162.
(51) العكبري، إعراب القراءات الشواذ : 2/ 661.
(52) سيبويه، الكتاب: 4/ 146.
(53) ابن جني، الخصائص :3/ 141

(54) من الآية (11) سورة النساء، أبو حيان، البحر المحيط: 3/ 193
(55) من الآية (61) سورة النور، أبو حيان، البحر المحيط: 3/ 193
(56) من الآية (32) سورة النجم، أبو حيان، البحر المحيط: 3/ 193
(57) من الآية (59) سورة القصص أبو حيان، البحر المحيط: 3/ 193
(58) أبو حيان، البحر المحيط: 3/ 193193
(59) ابن خالويه، ليس في كلام العرب: 87
(60) النحاس، إعراب القرآن للنحاس: 1/ 440، أبو حيان، البحر المحيط: 3/ 540
(61) سيبويه، الكتاب: 4/ 107
(62) ابن سيده، المخصص: 14/ 213.
(63) ابن مكي الصقلي، تثقيف اللسان: 227، أبو حيان، الارتشاف: 2042/4 ، ابن منظور، اللسان: (ب ع ر) 312/1.
(64) ابن سيده، المخصص: 4/ 331
(65) ابن جني، المحتسب: 37/1.
(66) سيبويه، الكتاب: 180/4، ابن سيده، المخصص: 14/ 213.
(67) عبدالهادي السلمون، لهجة ربيعة: 115، 116.
(68) عبدالهادي السلمون، لهجة ربيعة: 116.
(69) الخليل، العين (ش هـ د) 398/2، الأزهري، التهذيب: (ش هـ د) 6/ 75
(70) النحاس، إعراب القرآن: 120/1 ، 2/ 3، الزبيدي، تاج العروس: (ش هـ د) 5/ 46.
(71) سيبويه، الكتاب: 4/ 439، 440، مكي القيسي، الكشف: 1/ 316.
(72) عبدالهادي السلمون، لهجة ربيعة: 114، 115.
(73) عبد الجواد الطيب، لغة هذيل: 42.
(74) سيبويه، الكتاب 4/ 439، 440.
(75) عبد الجواد الطيب، لغة هذيل: 42.
(76) عبد الجواد الطيب، لغة هذيل: 48 ، 49.
(77) من الآية (1) سورة المائدة.
(78) النحاس، إعراب القرآن :3/2 حاشية 4.
(79) من الآية (271) سورة البقرة.
(80) مكي القيسي: الكشف: 1/ 316.
(81) عيد الطيب، لهجات العرب وامتدادها إلى العصر الحاضر: 180.
(82) ابن سيده، المخصص: 1/ 130.
(83) سيبويه، الكتاب:4/ 109، ابن سيده، المخصص: 6/ 191.
(84) سيبويه، الكتاب: 4/ 273.
(85) صالحة راشد، اللهجات في الكتاب: 102.
(86) عبد الجواد الطيب، لغة هذيل: 48 ، 49.
(87) سيبويه، الكتاب: 4/ 273،ابن جني، الخصائص 2/ 143. 314.

(88) ابن سيده، المخصص: 11/ 206.
(89) الأخفش، معاني القرآن: 1/ 156.
(90) الأخفش، معاني القرآن: 1/ 156، الفراء، معانى القرآن :1/ 3، من الآية (2) سورة الفاتحة.
(91) الأخفش، معاني القرآن: 1/ 156.
(92) الفراء، معانى القرآن: 1/ 3.
(93) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/ 45
(94) السيوطي، المزهر: 1/ 225.
(95) أبو حيان، البحر المحيط 1:/ 33.
(96) الفراء، معانى القرآن: 1/ 3.
(97) النحاس، إعراب القرآن: 1/ 170.
(98) عبد الفتاح القاضي، القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب: 21.
(99) ضاحي عبد الباقي، لغة تميم: 267، 268.
(100) الفراء، معانى القرآن: 1/ 3.
(101) ابن سيده، المخصص : 2/ 262.
(102) أبو حيان، ارتشاف الضرب:1/ 97، ابن سيده، المخصص: 2/ 67.
(103) سيبويه، الكتاب : 4/ 265 ، 266 .